حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

صناعة الفخار في ولاته

بشيري ولد محمد
قسم الجغرافيا- جامعة انواكشوط

كمال إبراهيم صيدم
قسم الجغرافيا- جامعة انواكشوط

مقدمة

فهمنا للحاضر يتحدد من خلال الماضي، ولا يتم ذلك إلا عن طريق دراسة ذلك التاريخ لما يحمله من صدق وأصالة لا يرتقي إليها شك، نظرا لخلوه من التضليل والتنويه، ولما له من قيمة في تصوير أدق معالم الحياة. إذ يصور لنا وبتفاصيل دقيقة أنماط الحياة واتجاهاتها، ويبرز المعالم على مر العصور بإيجابياتها وسلبياتها. ولن نكون كاذبين لو قلنا بأن التراث أكثر صدقا من التأريخ، لأن التأريخ لا يعدو كونه نتفا مزوقة انتقيت بعناية من قبل كتابها الذين رافقوا الحكام والملوك والقادة وأهملوا حياة العامة، حياة الشعب الحقيقية، ولم يعيروا ثقافته وفنونه سوى الاهتمام البسيط.

وآمل أن يسهم هذا الجهد المتواضع في إلقاء الضوء على بعض الأمور التي تدعم فهم المجتمع الولاتي الحالي. وتأتي ضرورة توثيق هذه الصناعة في ولاته بالذات نظرا للمستقبل الرهيب الذي بات ينتظرها، والذي سيطمس معالمها الحضارية والإنسانية، ويحولها إلى مجرد ذكريات في نفوس أبنائها. وربما ستمحى تلك الذكريات عبر السنين. وحبذا لو ساهمت وزارة الثقافة بتسجيل موروثها تسجيلا حيا إذاعيا وتلفزيونيا، إضافة إلى دعم صناعه وتشجيعهم على متابعة المهنة.

يقال "الحاجة أم الاختراع"، هذه مقولة صحيحة، فلولا الحاجة لما تولدت الاختراعات. وانتقاء الحاجة يعني ضمور الاختراع واحتضاره. ونتيجة الحاجة الملحة في احتفاظ الإنسان بالسوائل تولدت لديه فكرة ابتكار أو اكتشاف شيء يتمكن بواسطته من حفظها. ويقال إن القدماء كانوا يخزنون السوائل بواسطة الصخور المنحوتة والقواقع وما إلى ذلك. واهتدى الإنسان إلى ابتكار صناعة الفخار فعمل الأواني الفخارية بمختلف الأحجام والأشكال لمختلف الغايات، وتفنن في هذه الصناعة وأضفى عليها إبداعات. وزيارة المتحف الوطني أو متحف ولاته يريانا قدرة الصانع على الخلق والإبداع.

هذه الأواني أصبحت جزءاً من الماضي تقريبا حيث غزت المطابخ والموائد أدوات حديثة نافست الفخار ولم يبق إلا المباخر قائمة في بعض المنازل وحتى هذه الأداة نافستها مباخر مستوردة من الخارج. وهذا ما جعلنا نكرس جهودنا في هذه المرحلة على التراث النبيل في ولاته. فقسمنا الموضوع إلى محاور ثلاثة: المحور الأول يعرف بالمحيط الذي تمت فيه صناعة الفخار تاريخيا وجغرافيا، والمحور الثاني يتعرض لنشأة صناعة الفخار ومراحل تطورها، أما المحور الثالث فيتعلق بصناعة الفخار في ولاته ويتناول مراحل الصناعة والمواد المستخدمة وأهم المنتجات وتسويقها إضافة إلى أهم المعوقات.

مدينة ولاته

ولاته مدينة موريتانية تاريخية عريقة، يحتمل أن تكون تأسست في القرن الأول الهجري، وقد زارها الرحالة ابن بطوطة سنة753هـ/1352م. وكتب عنها في رحلته فقال: "إنها تبدو عليها مظاهر الشيخوخة والقدم"، ووصف رجالها بأنهم محافظون على الصلوات والفقه وحفظ القرءان. وذكر ابن خلدون ولاته فسماها "ولاتن" وتحدث عنها السعدي في تاريخ السودان فسماها "بيرو" وذكرها الشيخ سيدي محمد ولد الشيخ سيدي المختار الكنتي وقال أنها كانت تسمى "بيرو". فمن هذا الموقع كانت تشع رائحة الفن والإبداع شعرا وتشكيلا وتاريخا وفقها ونحوا ولغة لتفوح في سماء كل المنطقة عابرة الهضاب والسهول والبطاح والصحاري وتهز أوتار الذواقين على اختلاف توجهاتهم واهتماماتهم وتاريخهم وجنسهم وعمرهم.

وأكثر ما يميز ولاته عن غيرها من المدن القديمة هو طرازها المعماري الفريد من نوعه، حيث التصاميم والزخرفة التي تبدعها النساء الولاتيات. وتتميز فيها كل أسرة بطابعها الخاص، وهي زخرفة شبيهة بما يوجد في "الزاب" في الجنوب الجزائري وإن اختلف عنه في الأشكال والألوان، وهو نمط لا تزال المدينة تحافظ عليه منذ مئات السنين، وتورثه النساء لبناتهن، والطريقة التي تتم بها عملية الزخرفة في هذه المدينة التي صنفتها اليونسكو ضمن التراث العالمي الذي تجب المحافظة عليه.

وكانت ولاته محطة من محطات القوافل التجارية الرئيسية التي تمر بها طريق مراكش – تمبكتو. وقد حل بها علماء ومربون من أمثال يحيى الكامل المحجوب الذي جاء إلى ولاته من بغداد التي

عاصر بها الشيخ عبد القادر الجيلاني، وبمجيئه انتعشت الحركة الثقافية والعلمية، وذريته تشكل بعض سكان المدينة ويسمون المحاجيب. وقد ورثت المدينة علماء مدينة تمبكتو بعد أفول نجمها، كما تخرج من محاظرها كبار علماء المنطقة من أمثال أبو بكر الصديق البرتلي والطالب ببكر المحجوبي ومحمد يحيى الولاتي وشيخنا محمدي ومبويه ولد باب اعمر، ومحمد يحيى ولد سليمه اليونسي وأن ولد محمد المصطف المحجوبي والمرواني ولد احماد ومحمد الأمين ولد عبد الله اليونسي ومحمد الأمين ولد باريك وغيرهم من العلماء الذين ألفوا كتبا نفيسة في الأصول وعلوم القرءان والفقه وأصول الشريعة المعتمدة كمراجع الآن في كثير من المحاظر والجامعات.

ولأن ولاته مثلت أحد أهم موانئ الصحراء إلا أن السيارات رباعية الدفع قضت على القوافل التجارية، فلم يبق لها ذكرا أو أثرا، كما لم يعد لتطريز الملابس والخياطة اليدوية قيمتها السابقة، فقد انخفض عدد المطرزات الخياطات بشكل كبير. وبعد أن كانت المدينة ذات شهرة واسعة بإنجاب الحرفيين المهرة تحولت إلى إنجاب الموظفين، فقد تخرج أبناؤها من المعاهد والكليات فابتلعتهم الوظائف الحكومية، وقد اشتهروا بإخلاصهم في عملهم واعتزازهم بكرامتهم.

ومن أجمل ما تكون عليه المدينة فصل الصيف (بعد سقوط الأمطار) وفصل الشتاء، حيث تكتسي تلالها وسهولها بحلل من الغطاء النباتي. فيخرج الناس إلى البراري لقضاء أمتع الأوقات بجانب عيون الماء وبركها. ويعتبر السد من أجمل أماكنها بعدما يمتلئ بالماء، حيث الصبيان لممارسة السباحة ويأتي آخرون للهو ومنهم من يكتفي بالجلوس متنسما هواؤه العليل.

المجتمع الولاتي

لو أننا حاولنا إلقاء نظرة بسيطة على السنين الماضية وما حملت للولاتيين من جوع ودمار وويلات ومآس وخوف وغيرها، لاستطعنا فهم أي سلوك أو تصرف يقوم به الأهالي، ولن ندين أي منهم على فعلته، والأمر نفسه ينسحب على جميع سكان المدن التاريخية الأخرى شنقيط ووادان وتيشيت.

ومن هنا تبرز ضرورة الأخذ بأيديهم لإنقاذهم من شعورهم العميق بالحزن والخوف والتخلف وعدم الشعور بالأمان[1].

ومما يلفت الانتباه في ولاته هو أن الزائر حينما يدخلها تطالعه عيون الساكنة بكثير من الدهشة، دون أن يراها أو يحس به. وعندما يكون رجلا يبادر بتساؤلات لا نهاية لها، وربما اقترب منه أحدهم بحذر وسأله عمن يكون؟ وعن سبب زيارته؟ وإذا ما كان لطيفا في الإجابة على المتطفل ألفه وواصل في الأسئلة متوقعا منك طرح أسئلة عن المدينة وأحوالها وعن أسرته. ومهما يكن من أمر فقد أضحى لديك صديق ينير لك طريقك ويوجهك ويرشد إلى حيث تريد الذهاب، وقد يدعوك إلى منزله مرة أو مرتين، وقد يستضيفك إن لم تكن ضيفا عند غيره.

وعلى المتطفل بعد تركه للزائر أن يرضي رغبات رفاقه بالإجابة على أسئلتهم. وسرعان ما يجد الضيف نفسه أشهر من نور على علم، في أي مكان تقصده. إنهم مغرمون بالثرثرة، لا شيء يشغلهم سوى الكلام. ويمكن أن تتعرف على كل ما يدور في العالم من أخبار وما يدور في المدينة وفي المحيط دون عناء، فهم يتلقفون الأخبار مهما صغر شأنها وينشرونها بسرعة تفوق سرعة وسائل الإعلام العصرية.

فعندما تُحدث فيها مثلا طاعنا في السن فإنك تبعث فيه روحا جديدة أكثر إشراقا، وكأنما انتشلته من غيبوبة، يحدثك بانطلاق ونشوة لم تألفهما. وسوف يكرر بين اللحظة واللحظة "حين كانت الدنيا والناس أوادم"، يندب الحياء المفقود والشرف الضائع. ويحدثك عن كل ما فعله وقاله مهما كان تافها وبعشق كبير، وكأنما هو جزء منه ومن شبابه وطفولته السعيدة. ويلعن شباب هذا العصر المائع العاجز عن فعل أي شيء. ويلعن الحاضر وحضارته ووسائلها الحديثة التي ما جاءت إلا

---

1 فعند زيارة غريب لولاته يظنهم أعداء في الوقت الذي يلاحظ توددهم إليه. ويرجع ذلك إلى طريقتهم الجافة في الحديث فهي ثقيلة الوقع وفيها الكثير من السماجة، إنهم عاطفيون يضحكون لما لا يضحك ويملء أشداقهم ويتألمون لأبسط الحوادث.

لإفساد الناس، ويذكر لك أن هذا من علامات آخر الزمان. والنساء[1] كن لبوات (جمع لبوة) نشيطات يعملن طوال النهار دون كلل أو ملل.

وعندما تُحدث فيها شابا مثلا فسرعان ما يحدثك عن العصر والتطور والحضارة والمستقبل، ويلعن تقاليد المدينة التي تحد من طموحات الشباب، الذين يحلمون بمستقبل أفضل لمدينتهم ويتحدثون عما يجب أن تكون عليه وما يجب أن تتخلص منه، ولكنهم مع ذلك يعودون للتسكع واللعب في الطرقات، فلا يعتنون بقراءة كتاب ولا يعملون شيئا لتحقيق أحلامهم. فهم يساهمون بدون وعي في تكريس تلك التقاليد والعادات والركود الذي يرفضونه في أحاديثهم[2].

هذا وتعتبر رابطة الجوار من أمتن الروابط الاجتماعية في المدينة. إذ يسرع الجار ناصرا جاره متحيزا إليه. يقف إلى جانبه ويشد من أزره ويكون عونه في كل مصيبة تلم به. يحترم صغيرهم كبيرهم ويعامل الرجل المرأة كأخ لها. إن أحب كان حبه عفيفا نقيا، وإن كره أو خاصم لا يتعرض لخصمه بطعن شائن "رغم إتقانه لأفظع أنواع السباب" كما كانوا يعتمدون نظام "الفزعه"[3]، ونظام "تقره" (عمل جماعي رجالي) في البناء والترميم والحصاد وفي كل ما يتطلب جهدا عضليا، وهو جهد مشترك من دون مقابل، ونظام "اتويزه" (عمل جماعي نسوي) تقوده أمهرهن.

ومن أفضل أوقاتهم تلك اللحظات التي يقضونها مجتمعين في "كت عباس" أو "الظليلات" أو "كدن". فتراهم يتحدثون عن كل الأمور التجارية والاجتماعية في كت عباس، وعن الأمور الاجتماعية والعلاقات في "الظليلات" وعن العلم والمعرفة في كدن و"ظليلت اتلاميد". وقد يعترضون المارة بتعليقاتهم الساخرة أحيانا والمضحكة البريئة أحيانا أخرى. وقد اختفت أو كادت أن

---

1 كانت المرأة تقطع مسافة طويلة حاملة "تنق" على منكبها لجلب الماء إلى منزلها. وتذهب إلى السد شرقا أو "الظايات" غربا، لغسل الملابس والاستجمام. أما الآن فهي تجلس في منزلها ويأتيها الماء من حنفية أو غيرها، وليست مرتاحة لوضعيتها، فكيف لا تقوم القيامة ويظهر الأعور الدجال.

2 سئل أحدهم ذات يوم عن قراءة الكتب والمجلات وحتى الكتب المحظرية فأجاب بدهشة: ماذا نفعل بها؟ فلا كتاب حديث ولا مجلة تدخل المدينة وليس فيها سوى مكتبة المسجد وقل من يتصفحها.

3 الخروج من المدينة لجلب الحطب.

تختفي كل تلك العادات فانعدمت الثقة وذهبت الألفة والمحبة. ولم يعد الأخ يأتمن أخاه، ولا الجار بجاره، وهذا هو آخر الزمان، كما يردد شيوخ المدينة[1].

وتقوم الولاتية إضافة لوظيفتها التقليدية كالكنس والطبخ وشي "المون" وغسل الأواني والملابس وتربية الأطفال، وزخرفة المنزل وصنع الحصير وصناعة الفخار والجلد، وغيرها، ولا تغادر منزلها إلا لحاجة تستوجب ذلك، كزيارة الأقارب والمشاركة في الأفراح والأحزان. وتخرج عادة متلفلفة في ملحفة وجلال أو ملحفتين من قمة رأسها حتى أخمص قدمها. ولا تظهر منها سوى عين واحدة لمشاهدة الطريق. وتلتفت نحو حائط أي منزل بطريقها إن هي فوجئت بقريب أو أحد رجال المدينة في طريقها، وقد يعتريها الخجل وتفقد توازنها دون مبرر واضح، علما بأنها لا تختبئ من غير رجال المدينة. أما إذا كانت في منزلها فهي على العكس تماما، حيث تجالس الرجال من أبناء المحلة وتتحدث إليهم فهم أهلها وإخوتها. وربما اجتمعت العوائل في دار واحدة لتسهر حتى وقت متأخر من الليل، في رمضان وفي غيره، فإذا تسلل النعاس إلى جفونهم ناموا دون إحراج، وعادوا صباحا إلى منازلهم. كما يجتمعون عصر كل يوم لشرب الشاي (يسمى الذهبي) وقد يرافقه شيء بسيط من الأكل (رد° فم° الكاس).

الفخار

تعريف الفخار[2]: هو أي شيء صنع من الصلصال (الطين) ثم أحرق في النار بعد جفافه، ويكتسب صفات جديدة طبيعية وكيميائية، ويتغير لونه ويتحول إلى جسم صلب مسامي له رنين ولا يمكن إرجاعه إلى الحالة الطينية اللزجة مرة أخرى لفقدانه الماء بسبب الحريق.

---

1 مقابلة مع السيد سيداتي ولد بابيه، أحد شيوخ لمحاجيب في ولاته.

2فخار في معجم المعاني الجامع

الفَخَّارُ :طين محروق، مُتعدِّد الأنواع كالصِّيني والخزف والقيشاني {قال تعالى: خَلَقَ الإنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ . سورة الرحمن}: طين محروق بالنَّار.

فَخار: اسم مصدر فَخَرَ أي أَظْهَرَ فَخَارَهُ: التَّبَاهِي بِالنَّفْسِ وَإِظْهَارُ الْمَكَارِمِ وَالْجَاهِ.

فَخَرَ: فعل، فخَرَ/فخَرَ بـ يَفخَر، فَخْرًا وفَخَارًا وفَخَارةً، فهو فاخِر وفَخُور، والمفعول مفخور به **فَخَرَ بِنَفْسِهِ** : تَبَاهَى بِنَفْسِهِ، أيْ أَظْهَرَ مَكَارِمَهُ وَجَاهَهُ، حَسَبَهُ وَنَسَبَهُ. **فَخَرَ الشَّاعِرَ**: غَلَبَهُ فِي الْفَخْرِ. **فَخَرَهُ عَلَيْهِ**: فَضَّلَهُ عَلَيْهِ فِي الفَخْرِ. **فَخَرَ الرَّجُلُ**: تَكَبَّرَ

وباختصار شديد يكون **الفخار** هو الطين المحروق غير المطلي، و**الخزف** هو الطين المحروق المطلي (المزجج). والخزف والسيراميك كلمتان مترادفتان تعنيان الطين المشكل والمجفف تحت الهواء والمشوي بالنار في أفران فأصبح طيناً مشوياً (الفخار) وزجج ليمنع نفاذية الماء والسوائل فأصبح خزفاً (بالعربية) وسيراميك (باليونانية واللاتينية)[1].

إن أصل الفخار مادة غير عضوية، غير المعدنية، صلبة وهشة (بعد أن توضع بالنار)مرنة جدا في وضعها الطبيعي، وهي من نوع الطين. ويُنتج بها العديد من الأشياء مثل الأواني الفخارية والتماثيل الصغيرة، ولونها بني عادة، ويمكن أن يمزج بمواد مختلفة وملونة[2].

نشأة الفخار

عاش الإنسان قديما في الجبال والوديان والكهوف وبالقرب من مجارى المياه والبرك والبحيرات، وقد وجدت في بقاع مختلفة مجموعات من الأواني الفخارية وغيرها من المجموعات الطينية المجففة فقط. فوجدت في الصين وفى آسيا وفى مصر والأقوال متضاربة في أيها أقدم.

فخار في قاموس المعاني (قاموس عربي عربي): مباهاة وتمدح بالمناقب والمكارم. **فخار في المعجم:** الفَخَّارُ: أَلْوَانٍ ونحوُها تُصنَع من الطينِ وتُحْرَق.

فخار في المعجم الوسيط: – طين محروق، مُتعدِّد الأنواع كالصِّيني والخزف والقيشاني " أوانٍ مصنوعة من الفَخَّار، – {خَلَقَ الإنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ}: طين محروق بالنَّار".

–أوانٍ تُصنع من الطِّين وتحرق.

فخار في المعجم اللغة العربية المعاصر: فَخَّارٌ:(ف خ ر): (مصدر فَخَرَ) أي " أَظْهَرَ فَخَارَهُ " : وهو التَّبَاهِي بِالنَّفْسِ وَإِظْهَارُ الْمَكَارِمِ وَالْجَاهِ.

فخار في معجم الرائد: فخار: مصدر فخر. 2 – فخر، عظمة.

1 أصل كلمة سيراميك يعود إلى المصدر الإغريقي (كيراموس) أو المصدر (كيراميس)، ويعني القرميد أو طينة الأوعية أو من المصدر (كيرامون) ما يعني أوعية الشراب المصنوعة من الطين المشوي، ويعود الفضل في هذه التسمية الشائعة في العالم لمصطلح سيراميك كمقابل للبوتيري Poterie.

2 تتألف الفخاريات عادة من مواد مختلفة : الطين، والفلسبار، رمل، أكسيد الحديد والألومنيا والكوارتز.

وقد تعذر في كثير من الأحيان تمييز القطع البدائية المختلفة للشعوب المختلفة عن بعضها البعض خصوصا ما صنع منها في عصر واحد. ومن المؤكد الآن أن الإنسان أول ما اكتشف الفخار اكتشف الآنية الفخارية.

وهناك عده آراء للمؤرخين حول اكتشاف تلك الأواني منها أن إنسانا كان يعدو في أرض موحلة وراء حيوان فغارت قدماه، ثم صادف أن هطلت بعض الأمطار ومر على نفس المكان شخص آخر فلاحظ أن الحفرة الناتجة من أقدام الأول الذي سبقه قد امتلأت بالماء. وهنا تبادر إلى الذهن عمل حفرة في الأرض صنعها بنفسه خصيصا للاحتفاظ ببعض الماء عندما تهطل أمطار أخرى.

وقال آخر: أن الإنسان عرف صنع الأشكال المجوفة من الطين عندما لجأ إلى الأماكن التي يوجد بها برك ومستنقعات أو أنهار ليعيش فيها سعيا وراء الماء، وقال أن هذا الإنسان كان يشرب بفمه من مجرى المياه مباشرة وتطورت هذه الطريقة عندما احتاجت أم من الأمهات ري طفلها فحملت الماء بكفيها وروته.

وهكذا شكلت هذه الآم من كفيها شكلا مجوفا لحمل المياه إلي طفلها، ومن هنا بدأ التفكير فما هو مجوف لحمل السوائل. ولكن الإنسان لم يعرف بناء الأشكال المجوفة من الطين إلا عندما اقترب من مجارى المياه كما ذكر البعض فعلا. وهناك من قال أن الإنسان قد شاهد سقوط بعض الثمار من فوق الأشجار أعلى النخيل (جوز الهند) على أرض طينية فتركت الثمار تجويفها غائرة على سطح التربة الطينية على شكل حفرة. أعقبه امتلاء الحفرة (التجويف) بالماء مما لفت النظر إلى أن الشكل المجوف يمكنه الاحتفاظ بالسوائل. وكان هذا الإلهام والاستدلال أول خطوة في صناعة الأشكال المجوفة.

أما فكرة حرق الأشكال الطينية فتكثر فيها الأقوال، فبعض الباحثين أسند ذلك إلى طريق الصدفة. فتخيل رواية هي من محض الخيال، فقال: حدث حريق في بعض الأكواخ وكان داخل هذه أكواخ أواني مصنوعة من الطين الجاف وبها بعض الأطعمة المختلفة والفواكه. ولما خمدت النار عاد أصحاب الأكواخ لتفقد ما تبقى لهم من أشياء، فعثروا على القطع الطينية في حالة صلابة لم يعهدوها من قبل. ومن هنا عرف الإنسان أن تعريض الأشكال المجوفة للنار والحرارة معناه جعل الأشكال أصلب مما لو جففت بتعريضها للجو فقط.

ويرى آخرون أن الإنسان عرف صنع الأشكال المجوفة من الطين عندما لجأ إلى الأماكن التي توجد بها برك ومستنقعات أو أنهار ليعيش فيها سعيا وراء الماء، ونظرا لأن هذا الإنسان كان يشرب بفمه من مجرى المياه مباشرة وتطورت هذه الطريقة عندما احتاجت أم من الأمهات سقي طفلها فحملت الماء بكفيها وروته.

تاريخ صناعة الفخار

إن صناعة الفخار من أقدم الحرف والفنون في تاريخ البشرية، ولم يعرف حتى الآن أين و متى بدأت؟ والمؤكد حتى الآن أن هذه الحرفة وليدة الحاجة والصدفة معا. فمياه الأمطار والأرض الترابية التي تتحول إلى طين بفعل المطر ثم تطبع عليها بصمة الأرجل شكلت حفرا امتلأت بالمياه فعرف منها الإنسان كيف يحفظ سوائله.

في عصر الزراعة احتاج الإنسان لأشياء يحفظ فيها الحبوب خاصة بعد أن جفت الطينة. ثم عرف النار وقام بتسوية الأشكال التي صنعها من الطين لتصبح أكثر صلابة ولا تنهار بفعل المياه والسوائل[1]. ومن هنا تطورت هذه الصنعة من صنع أدوات نفعية إلى فن. وبوجه عام كانت الحياة من ناحية تناول الأدوات المعيشية بسيطة مثل الجرار والصوامع (لتخزين الحبوب والغلال) والصحون والأطباق لنقل منتجات الحقل وحفظها، والقدور لنقل الماء وحفظه وتبريده، وغيرها.

وأعظم ما أنتج في فنون الفخار والخزف هو ما أنتجته الحضارة الإسلامية لتعدد البلدان التي ضمتها هذه الحضارة وتنوع الأساليب والتقنيات التي عرفها صانعو الفخار في ظل الإمبراطورية الإسلامية.

لقد اقترن فن الصناعات الفخارية بفضل تاريخه الطويل، بالتطور والاستخدام والتنوع الواسع. وكانت الأواني المطلية وغير المطلية متداولتين كليهما، وبقي تأثير الفن الفخاري بارز. إن المسيرة المتنامية من حيث الصياغة والتكامل والأهم من ذلك الأساليب التزيينية الجديدة وتنفيذ النقوش المتنوعة وتوظيف فن الرسم في الصناعات الفخارية، كل ذلك يعد تحولاً كبيراً استمر تدريجياً حتى فترة أفول هذا الفن. ويمكن مشاهدة تطور صناعة الفخار وجماله في المتاحف.

---

1 عرف أن الرمال تتصهر بفعل النار وتتحول إلى زجاج فكانت الطبقة الزجاجية التي تسد المسام في الأواني الفخارية وتزيد الفخار صلابة.

الفخار في ولاته

إن ولاته لوحة فخارية تحكي تاريخا طويلا، تقول للعالم: أنا مازلت هنا رغم القدم، رغم الحكايات، ورغم كل التغيرات التاريخية، رغم قسوة الطبيعة، ورغم التعرية، حية وأنمو كما كنت دائما، وأستبطن الحكايات وأدونها في مستلات بأيادي محلية متمكنة. تفوح من هذا الموقع رائحة الفن والإبداع شعرا وتشكيلا وتاريخا وفقها ونحوا ولغة لتشع في سماء كل المنطقة عابرة الهضاب والسهول والبطاح والصحاري وتهز أوتار الذواقين على اختلاف توجهاتهم واهتماماتهم وتاريخهم وجنسهم وعمرهم.

لم تثبت البحوث التاريخية والأركيولوجية[1] متى عرفت المدينة هذه الحرفة، لكن الآثار تفيد بتواجدها منذ بداية الإرهاصات الأولى لظهور الإنسان في هذه الربوع. ويثبت ذلك آثارا ولقي فخارية شمال المدينة وغربها وشرقها صعب على الباحثين معرفة تاريخها بالضبط. غير أن البعض يتحدث عن علاقة بعضها بالأندلس، وبعضها بالحضارات الإفريقية القديمة. وقد كان الوافدون للمدينة من تجار وطلبة علم ومحاربون وسياسيون وزوار عاديون يتقنون من جملة ما يتقنون فن الفخار وحرفا يدوية أخرى[2].

ومن هنا نالت المدينة النصيب الأكبر من المبدعين في هذا المجال، الذين استقروا فيها، وشكلوا ورشات عمل تطورت عبر التاريخ، وتوارثت جيلا عن جيل هذه الحرفة.

ولعل جودة الفخار جاءت عبر مراحل من اختمار الصنعة وإتقانها وتنافس الحرفيين. إذ كان التناول بداية عبارة عن حرفة لكسب الرزق وخدمة الناس في توفير حاجاتهم من الأواني والمصنوعات الطينية البسيطة. ثم أصبح العمل الفخاري فن أصيل يسلب العين ويثير شهيتها وفتنتها. ولئن كانت هذه الصناعة قد نالت حظوة كبيرة وذيوعا شعبيا وأصداء في كل مكان، فإنه

---

1 مما يدل على استعمال الفخار في مختلف أوجه الحياة القديمة، وجود الأواني الفخارية قرب المقابر، مع أن تحديد المهد الأول لهذه الصناعة بقي مجهولا.

2 الحسن الوزان بن محمد الفاسي المعروف بليون الإفريقي، وصف إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، ط3، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1983.

مازال يستعمل في الغالب أدوات بسيطة تزيد من شعبيته وإقبال الناس عليه واهتمامهم بجمالياته رغم المنافسة والمضايقة التي يتلقاها من طرف المصنوعات الحديدية والخشبية والجلدية.

وولاته هي مدينة "البيظان" الوحيدة التي تستخدم فيها الأواني الفخارية مثل قدور المياه، ومواقد المطبخ، ولعب الأطفال، و"تنق" من أجل جلب الماء من البئر، و"اقدح لبخور" التي تجعلها النساء تحت ملاحفهن، ودمى ومنازل صغيرة للعب البنات، تنمطها بذوق رفيع امرأة أو نساء مجتمعات، إلخ، تجفف وتحرق، ثم تزين وفقا للأساليب الكلاسيكية، والتقليدية للفخار (بصمات الأصابع والقش، إلخ).

مراحل صناعة الفخار

سنحاول في هذا العمل إعطاء صورة واضحة ودقيقة لكل العمليات التي ترافق صناعة الفخار بدءا بتحضير الطين وانتهاء بفخره ثم بيعه.

ويمكن تلخيص مراحل صناعة الفخار في المراحل الثلاث التالية:

المرحلة الأولى: تتمثل في جمع مادة الطين التي تتواجد غرب المدينة وشرقها، وتصفيته من الشوائب. إن خطوات هذه المرحلة متعبة جدا، ومن يتابع تفاصيلها يشعر بصدق هؤلاء الحرفيين وفنياتهم العالية. ويوجد الطين بين طبقات، وكأنه معدن يستخرجه الحرفيون من رحم الأرض على هيئة كتل كبير. ويكون خلعه بالوسائل التقليدية كالرفش والمعون ويعبأ في خنش ثم ينقل بواسطة الحمير إلى منازل أصحاب المهنة. وكان يستخدم في عملية النقل حقائب كبيرة مصنوعة محليا من جلد البقر، توضع على ظهر حمار، بحيث يحمل في كل جانب من حقيبة وتربطان بأداة من الخشب والحديد يطلق عليها "لمسامه" توضع فوق ظهر الحمار بعد أن يجعل بينها وبين ظهره حاجز من القماش الغليظ ("دفره") خوفا من أن يتضرر جسمه.

المرحلة الثانية: تكمن في تجهيز الطين وإعداده، وسواءً أخذت الطينة من الطبيعة أو تكون بقايا من استخدام سابق. تتربع الصانعة لإنجاز الأواني والقطع الفخارية متتبعة الخطوات التالية لإعداد الطينة:

1. وضع الطينة في حفرة أو وعاء شبه عميق ويفضل أن يكون من البلاستيك.
2. تذويب الطينة بشكل جيد.

3. سكب كمية من الماء على الطينة حتى تكاد تغطي سطحها.
4. يتم عزل الشوائب العالقة في الطينة أو قطع الطين التي لم يتم ذوبانها بالكامل، لأن هذه الشوائب تؤثر على الطينة أثناء التشكيل أو عند الحرق لكي لا تحدث عيوبا في القطع.
5. توضع على لوح خشب مغطى بقماش قطعة الطين الأولى ويتم تثبيتها جيداً حتى لا تتحرك أثناء العمل.
6. تعرّض الطينة للجو بعد فردها على لوح خشبي أو ما يقوم مقامه

صورة رقم (1) طينة جاهزة للاستغلال صورة رقم (2) كتلة طينة لتشكيل قطعة

بعد ذهاب لمعان الماء من الطينة يلمس سطحها بالإصبع إذا التصقت الطينة مباشرة به فيعني هذا أنها مازالت طرية غير قابلة للتشكيل، أما إذا لم تلتصق به وشعرت ببرودة سطحها تبدأ بعدها عملية العجن.

ويتم عجن الطينة بهدف التخلص من الجيوب الهوائية بداخلها ولزيادة تماسكها حتى يتم تشكيل العمل الفخاري بنجاح، لأن الجيوب تحدث عيوبا في العمل أثناء أو بعد التشكيل أو قد تحدث انفجاراً للعمل أثناء الحرق نتيجة لتمددها داخل الجسم بسبب ارتفاع درجة الحرارة. وتتضمن عملية العجن الخطوات التالية:

1. تضغط كتلة الطين براحتي الكفين مع الدفع قليلاً إلى الأمام وإلى الخلف،

2. يتم تجميع الطينة المضغوطة من على اللوح بأطراف الأصابع بخفة دون غرس الأصابع فيها، لأن غرس الأصابع في الطينة أثناء عملية العجن تزيد من وجود الجيوب الهوائية داخل الطينة وهي من الأخطاء الشائعة التي يقع فيها كثير من المبتدئين فيجب التنبه لذلك،

3. يعاد الضغط على كتلة الطينة براحتي الكفين ومدها إلى الأمام ثم إعادتها إلى الخلف،

4. يعاد تجميعها كما في الخطوة الثانية،

5. تكرر الخطوات التالية لمدة لا تقل عن ثلاث مرات بعد تجميعها،

6. يتم رفعها بين الكفين ثم رميها على اللوح وتسمى هذه الطريقة (ضرب الطينة) وتسهم كل من عمليتي العجن والضرب في تماسك الطينة وقابليتها.

7. يستمر هذا العمل بين العجن والضرب حتى تكون الطينة طرية، وفي نفس الوقت متماسكة قابلة للتشكيل. ويجب عدم الإفراط في العجن والضرب أيضا، لأن ذلك سوف يتسبب في تشقق الطينة، مما يجعلها في حاجة إلى الترطيب برش الماء حتى تعود إلى ليونتها.

8. يتم فصل كتلة الطينة بعد دحرجتها من المنتصف بالسلك لمعرفة مدى سلامتها من وجود الجيوب الهوائية، فإن وجدت تعاد خطوات العجن السابقة، وإلا فمعنى ذلك أن عملية العجن كانت ممتازة، فتعجن الكتلتين بعد فصلهما جيداً. و يتم التشكيل مباشرة قبل أن يجففها الهواء.

ومن هنا ينسلخ الطين عن هويته بسرعة فائقة ويتحول إلى قطعة أو شكل مصمم بعناية.

المرحلة الثالثة تتم فيها تشكيل القطع وحرقها.

يقول مونو (T. Monod, 1996): "ما من شك في أن فخاريي ما قبل التاريخ كانوا يستخدمون طرقا مشابهة لما نراه أمام أعيننا اليوم، ولم تتغير رغم القرون المنصرمة.

إن الطريقة المستخدمة في ولاته هي طريقة التشكيل بالضغط، وهي تشكيل الطينة بالإصبع واليد لإنتاج الشكل، ويمكن بطريقة الضغط عمل آنية من كرة من الطين دون تدخل أي نوع من الأدوات في طريقة التشكيل. وتتضمن هذه الطريقة المرحل الآتية:

1 . بعد عجن الطينة جيداً تؤخذ كتلة منها لتتم دحرجتها حتى تتحول إلى كرة من الطين.

2 . يتم تثبيت الكرة في أحد الكفين، بينما يتم الضغط بإبهام اليد الأخرى وسط الكرة لعمل تجويف بداخلها دون الوصول إلى الجهة الأخرى من الكرة. تأخذ القطعة إذن حسب نوع الإناء الذي ترغب

في صناعته، والذي تتحكم في سعته حسب حركة أصابعها التي يجب أن تبقى حركتها على صلة متواصلة مع تفكيرها كي يبقى التكوير للطين مناسباً. فسر مهنتها يكمن في حركة أناملها التي لا يستطيع أن يتقنها إلا شخص متمرس وذو خبرة في المهنة، لأن أي حركة بسيطة قد تشوه شكل الطين.

3 . يتم الضغط على الجدران الداخلية للكرة بالإبهام من القاعدة إلى الفوهة مع استمرار دوران الكرة وهي في كف اليد الأخرى.

4 . التأكد من أن جميع الجدران لها نفس السماكة من خلال الإحساس بين الأصابع وكف اليد، لأن الاختلاف في سماكة الجدران يؤدي إلى عيوب في القطعة (تصدعات) سواء أثناء مرحلة التجفيف أو أثناء الحرق.

5 . التنبه لاتجاه حركة الضغط، فإذا كان اتجاه حركة الضغط على الجدران من الأسفل إلى الأعلى نحو الفوهة سيكون العمل مغلقاً أي أشبه بالكرة المفرغة، أما إذا كان الضغط بالاتجاه المعاكس للفوهة فسيكون العمل أشبه بالطبق أو ما يماثله.

6 . يتم تنظيف العمل بأدوات التعديل والتكييف، ومن المهم عدم الإكثار من رش العمل بالماء لأن كثرة الماء تزيد من لدونة الطينة. وعند الانتهاء منها توضع القطع في مكان مظلل لمدة يومين حتى لا تتشقق.

7. بعد هذه المراحل من تشكيل الطينة يبقى أمامنا الفخر أو الحرق لنحصل على الفخار. وتتم العملية على مراحل : أولها جمع مادة الحرق وتمكث أياما، تنقل القطع إلى مكان الحرق، المسمى محليا "الوريه"، الذي يهيأ أسبوعا قبل العملية بجمع مخلفات الحيوانات التي جفت جدا مثل البقر والإبل والحشائش الضعيفة، وثانيها تجميع عدد كبير من القطع الفخارية (لدى الصانعة أو عند غيرها) وتنقل إلى "الوريه" (مكان حرق القطع صور رقم :3) مع المادة المجهزة للحرق وتمكث العملية يوما أو يومين، وترفع إلى مترين أو ثلاثة أمتار حسب كمية القطع الفخارية.

صور رقم (3) تمثل نموذج مصغر لطريقة حرق القطع الفخارية

وتدفن القطع داخل مادة الحريق بطريقة خاصة بحيث تكون الصغيرة في الأسفل وتقلب فوقها الكبيرة، على أن تكون فوهاتها متجهة نحو الأسفل، وتخلط ببعض بقايا الأواني القديمة لوضعها بشكل متزن ولتحتفظ لها بجزء من الحرارة. وأخيرا عملية الحرق التي تكون في الصباح الباكر، وتمكث أكثر من أسبوع، حيث تضرم النار في الجهات كلها عن طريق أربعة أشخاص أو شخص واحد وأمام قدر من الناس أتي لحضور هذا الحدث الهام، والذي أخبر بموعده منذ أسابيع، ولاشك أنه ساهم فيه من قريب أو بعيد. ينسحب الناس عندما يبدأ الدخان في الارتفاع، ويبقى شخصين أو ثلاثة مهمتهم متابعة احتراق النار في الجوانب حتى يتأكدوا من استوائها في الأطراف كلها، ويذهبون ويرجع أحدهم مساء ليرى تطور عملية الاحتراق، وإذا كان بها خللا أصلحه، ويرجع في صباح اليوم الثاني لتأكد من استمرار توسع دائرة الاحتراق، وهكذا حتى يطمئن على العملية.

صورة رقم (4) حرق القطع

صورة رقم (5) حرق القطع

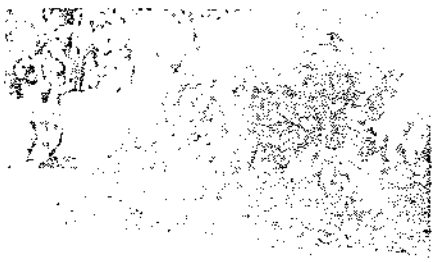

ومن هنا يتركها حتى تصبح النار رمادا وتبرد القطع (صورة رقم 6 و7). ولا يمكن تحويلها إلا بعد أن تبرد لأن ذلك سيؤدي إلى تحطيمها. وسيكون على الفخاري التأكد من اليبوسة ومن جاهزية القطعة للزخرفة. وقد يجد بأن القطعة تظهر بها بعض المسامات فيعمل على سدها بتقنية فائقة، وبعد يبسها تهيأ للزخرفة.

صورة رقم (6) أواني في رماد الحرق

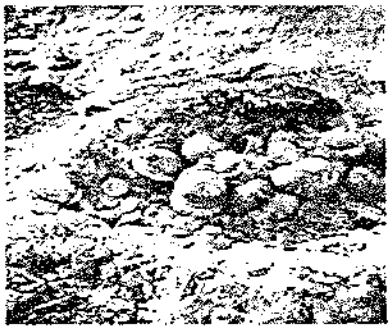

صورة رقم (7) أواني في رماد الحرق

وقد تنقل إلى في فرن حراري حيث تشوى فيه لمدة ساعات، ويبقى الفخار فيه لمدة يومين أو ثلاثة أيام حتى يبرد. وقد استخدم هذا النوع من الأفران في مشروع التعاون الإسباني. وهو عبارة عن فرن من الطين على شكل كوخ مغلق وبه فتحتان، إحداهما أرضية وضيقة لإدخال الغاز وإشعال النار، والأخرى واسعة في أعلى الفرن لإدخال القطع. وتبنى الأفران عادة من الطين على النمط نفسه أي على شكل كوخ مغلق وبه فتحتان، إحداهما أرضية لإدخال الحطب وإشعال النار فيه، والأخرى في أعلى الفرن لإخراج الدخان. وتعتمد الأفران في عملها على مادة الحطب.

8 . بمجرد ما تنتهي هذه العملية يأخذها الفخاري فيزوقها وينمقها ويزخرفها. بعد أن كان قد أحكم خلط صباغته المعدنية[1] وضبطها بمادة العلك كي تطاوعه خاصة وأن الصباغة المستعملة عبارة عن معدن، أي أن الألوان طبيعية، لا تتضمنها أصباغ صناعية، وسرها يكمن في بعض الإضافات على عجينة الفخار، فإذا أرادت الأبيض زادت عليها قبل العجن قليلاً من الملح، أما الأحمر فهو اللون الطبيعي للطين، ويبقى الأسود تحصل عليه بإغلاق فوهة فرن الفخار فيسد

---

1 استخدمت في تزيين الفخار ألوان مختلفة مثل الأزرق، الوردي والأخضر، والأبيض، والفيروزجي، والأحمر، والبني، والأسود والأصفر.

المسامات ويكسب القطعة اللون الأسود. وتكون المزخرفة عليمة بالأشكال حافظة لها رغم تعقيدها. والغريب في الأمر أن الفنانات لا يستعملن تخطيطات مسبقة، بل يعملن بتلقائية. وزخرفة الفخار الولاتي قد تكون خشنة إلى حد ما أو محتشمة مثل أواني تبريد الماء الشروب (قدره)، وقد تزخرف بشكل مثير. ويمكن أن تضفن أشكالا أو رموزا حسب رغبة الصانع أو رغبة الزبون. وبعد أن تنتهين من عملهن تتركنها تجف في الشمس.

المواد والوسائل المستخدمة

إن صانعات الفخار هنا لا يستخدمن سوى أيديهن، ويعملن وفقا لأسلوب "بودين" "boudin" (Puigaudeau[1], 2002)، ومن المواد والوسائل في هذه الصناعة ما يلي:

الماء : يلعب دورا أساسيا في التكوين والتذويب، والفرز، وإضافة الألوان المطلوبة.

الطين: الطين الصالح لهذا النشاط هو ما يجعل صناعة الفخار. عبارة عن صخرة متفتتة إلى جزيئات صغيرة بواسطة العوامل الطبيعية التي تعرضت لها الصخرة الأم لملايين السنين. وتختلف فيما بينها في تركيبتها وبالتالي في ألوانها ولدونتها إلى الطين الأحمر والطين الأصفر وطين لقدور والطين الأبيض (تمنق وطين اعل).

طين لقدور: الطين الذي يستخدم لصناعة الفخار.

العجينة: هي الطينة التي تعمل منها الآنية.

القطاعة: عبارة عن اسطوانة من الخشب تستخدم لفرد الطينة عند إعداد الشرائح بهدف منح الطينة السمك المتساوي.

أدوات التكييف: أدوات مصنوعة من الخشب تنتهي أطرافها برؤوس مدببة، تستعمل لتعديل أجزاء الطين وتنظيفها بعد عملية التشكيل وفي الوصول إلى الأجزاء التي لا يمكن الوصول إليها باليد مباشرة.

«**موس**": سكين المنزل بعد عمر، تستخدم في تهذيب وحفر وقطع الطين.

"**الملشفه**": وهي إبرة غليظة ولها آلاف الاستعمالات متضمنة منها تهذيب الشكل وعمل حزوز وزخارف في الطين.

---

1 أودت بيكودو (OdettePUIGAUDEAU) (1897 . 1991)، كانت في ولاته سنة 1937. وفي سنة 1933 مكثت هذه المرأة الفرنسية 18 شهرا وهي تلبس "ملحفة"، وفي الصحراء الغربية حتى سنة 1960. وأنجزت أربع حملات جمع المعلومات على ظهور الجمال مع زميلتها المخلصة ماريون سنونس (MarionSenones).

"**سلك**": عبارة عن خيط مصنوع من المعدن أو النايلون القوي مركب على قطعتين من الخشب وهذه الأداة تستعمل في قطع أجزاء من الطينة أثناء العمل.

"**ملاسه**": أداة من المعدن المرن مسطحة تستعمل في تنعيم سطح الطين وعمل ملامس خاصة به وإزالة الطين الزائد.

"**لوح**": لوح سميك أو منضدة من الخشب تتميز بقابليتها على امتصاص الماء الزائد في الطينة تستخدم لعجن الطين وإعداده.

«**حفره**": غار غير عميق، يجمع فيه طين لقدور خوفا من تشتيته.

"**ازبل**": مخلفات الحيوانات، وتستخدم في عملية الفخر.

"**معرظ**":حجارة من صخور نارية تستخدم لطحن الطين أو عجينته عند الحاجة.

"**ارماد**": بقايا وقود الحطب، يستخدم لتجفيف القطع والايدي عند الصناعة.، ولعدم التصاق القطعة باللوح.

"**النتافه**": شعر الغنم يستعمل في عجينة الطين لغرض تماسك الطين إن كان يحتاج إلى ذلك.

أهم المنتجات الفخارية في المدينة

فالأواني الفخارية هي مكان جمع كل الأطعمة: الحبوب، والزبده، والدهن، والماء، والحليب، واللبن، ومستحضرات التجميل التقليدية، والنار.

وقد تأثرت تسميات الفخار كثيرا بفعل الشعوب التي تعاقبت عليها، ولغاتهم المختلفة، حيث نجد مسميات أزيرية وأخرى من الصونغاي والبامبار والطوارق والحسانية.

وبفعل همة وصبر أصحاب الحرف التقليدية من صناع الفخار تم إنتاج الأدوات التالية وتشكيلها من الطين. والفخار الولاتي أنواع وأشكال، ولكل منها مواصفاته وأسماؤه، فمثلا هناك الإناء الصغير يسمى "صطله"، والكبير "قدره"، والأكبر "مرنج"، ثم هناك "الواريه"، و"لقديره" وهي مخصصة لتخزين ماء الشرب أو للتبريد.

"**تنقه**"[1]: قدر شبه دائري واسع نوعا ما من المنتصف، فمه ضيق، تستخدمه النساء في نقل الماء من البئر إلى المنازل. وقد أهملت صناعتها منذ سبعينات القرن الماضي تقريبا. وهي تصنع على ثلاثة مراحل: 1. القاعدة وهي الأسهل، 2. الرقبة وهي الأصعب، 3. الوسط.

---

1 آنية تستخدمه النساء لنقل الماء من الآبار إلى المنازل.

صورة رقم (8) تنق

وتكون القاعدة على شكل كروي أو بيضوي مفتوح من الأعلى ومجوف من الداخل، وبعد أن يجفف قليلا يربط به الوسط، ويترك لفترة في الشمس ثم في الظل، ومن ثم تربط بهما الرقبة. وعندما تكتمل تكسى بسائل الطين حتى يختفي مكان الإلصاق، وتوضع في الشمس لبرهة ثم تحمل إلى مكان ظليل. والقدور ليست من أواني الزينة أو اللعب، وليست من الكماليات. ولم تعد تصنع في المدينة وإنها يؤتى بها من "النواره" أو "كالا" أو حتى باماكو وهي مدن مالية.

وتستخدم الأواني في خزن الماء وتبريده وتنقيته ولا زال كثير من السكان يستخدمونها لنفس الأغراض، ولكن بصورة أقل مما كانت عليه سابقا.

"**القدور**": أوانٍ فخارية معروفة من اسمها وتختلف أحجامها حسب الطلب، وتستخدم لنفس الأغراض تقريبا، كما أن منها ما يستخدم أيضاً لسقاية الدواجن والطيور والقطط.

صورة رقم (9) نماذج من "القدور"

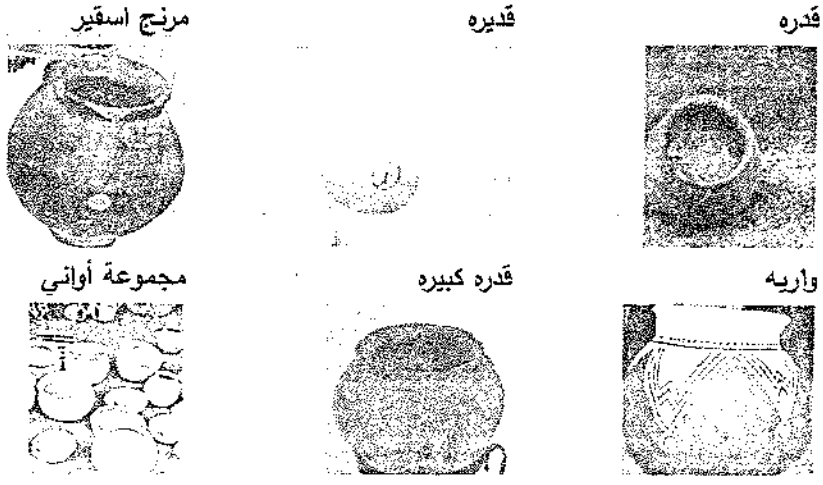

"**القدره لكبيره**": آنية خاصة، تدفن أيضا في الجدران والنوافذ لخزن الأشياء الثمينة. وكانت تستعمل في خزن الحبوب بداخلها، وقد أهملت صناعتهما منذ عهد بعيد

"**قدره**": آنية فخارية كبيرة تستخدم في حفظ ماء الشرب وتبريده، وتتخذ أشكالا مختلفة. تتراوح قدرتها الاستيعابية بين 5 و10 ليتر.

"**واريه**": قدره ذات فوهة واسعة، تستخدم لتبريد الماء فتكون له نكهة خاصة، وطعم مشوّق في أوقات الحر.ويعرفها البعض بثلاجة الفقراء.

"**مرندي**"[1]: خزان ماء المنزل تتراوح قدرته الاستيعابية بين 50 ليتر و100ليتر.

صورة رقم (10) نماذج من "مرندات" (جمع مردي)

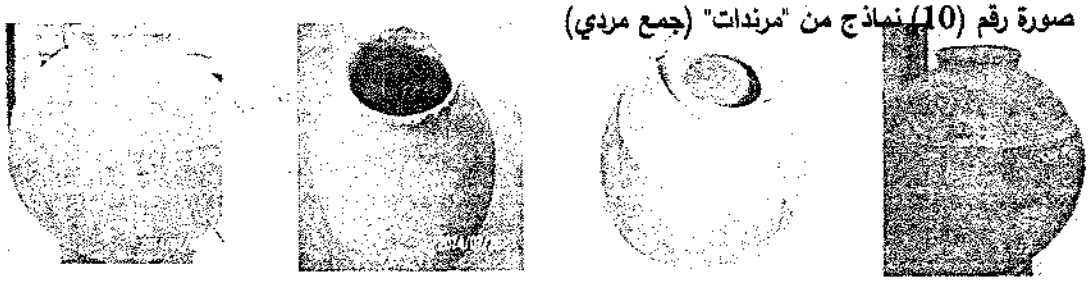

"**صطله**" : وعاء لغرف الماء من مرنج وتستخدم للشرب.

"**بلميه**" : إناء فخاري صغير اسطواني الشكل، يستخدم لغرف الماء من القدر الكبير ("مرنج") تحت اسم "الصطله" أو "المغراف"، وفي المرحلة الأخيرة من عمرها تستخدم في تزيين بوابة "السقفه"، حيث يحفر لها جدار المدخل وتدفن فيه لتصبح مكان طرح الأدوات الصغير التي يخاف من ضياعها لو وضعت في مكان تصله أيدي الصبية، وفي هذه الحالة يصبح اسمها "لمشيمعات"[2]. ففي بعض البوابات نجد خمس مشيمعات[3] وفي بعضها 8 مشيمعات أو 10.

"**مزهريه**": أنواع من القطعة تستخدم لجمع الأقلام على المكاتب ولأغراض مماثلة.

"**سلاي**": جره واسعة الفم تستخدم لبرم الكسكس وغسل الملابس، وجمع الحليب أحيانا.

"**بلحه**": أنبوبة فخارية مفتوحة الطرفين بطول ذراع تقريبا، تقذف بمياه المطر من الأسطح وإلى خارج المنزل.

"**تقميه**": أيّة قطعة فخارية مكسورة من أي نتاج كان، تستخدم سابقا لتنظيف وحك الأيدي والأرجل أيام الشتاء بدلاً من الصابون، حيث تجعل الجلد نظيفاً وناعماً.

"**متموره**": آنية دائرية الشكل، تُحفظ فيها الحبوب. وتكون بطول 1.2م وقطرها 0.5م. (صورة رقم (11).

---

1 خزان للماء في المنزل تتراوح قدرته الاستيعابية بين 50 ليتر و100ليتر. والأخر من 5 إلى 10 ليتر.

2 تستخدم كنوافذ صغيرة في أعلى جدار مدخل السقفه كخزانات للأشياء الصغيرة ذات القيمة.

3 فتحات صغيرة في أعلى جدار باب السقفه وجانبيه، تستخدم للم الأشياء الصغيرة بعيدا عن أيادي الأطفال، وقد تكون ذات قيمة كبيرة.

صورة رقم (11) متموره

"**بنبيزه**": آنية متوسطة الحجم لها ثلاثة عرى (مقابض) داخلية، شكلها دائري وقاعدتها سميكة، إنها موقد النار. تستخدم لإشعال النار وللطبخ والتدفئة.

صورة (11) طفاية

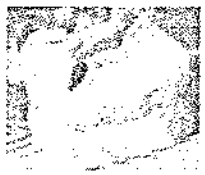

صورة رقم (12) "بنبيزه"

صورة رقم (13) "بريه"

"**اقدح لبخور**" أو المبخرة: تعرف من اسمها، إنها محارق البخور، أو المداخن التي تستخدم لأغراض تبخير البيوت وخاصة في الموالد والأفراح وغير ذلك. وهي من الفخاريات البالغة الشهرة في ولا تهلأنها مخصصة لتزيين البيوت وتطييبها. وتتميز بتعدد أشكالها واختلاف ألوانها حيث تتفنن النساء في وضع لمسات جمالية ونقوش وزخرفة على جسم المبخرة الخارجي. ويستخدم في تلوينها في الغالب كل من اللون الأبيض، والأحمر، والبني والأزرق. (صورة رقم (14).

صورة رقم (14) "قدحان لبخور"

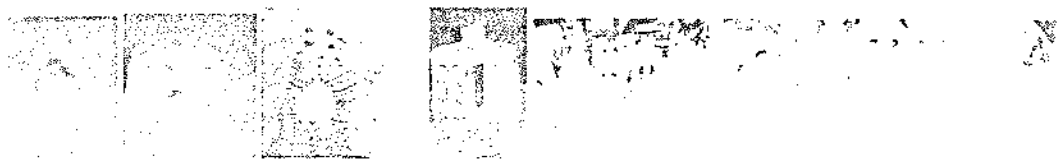

"شمعة اشحم": مصباح.

"اقدح لخواظ": آنية تستخدمها النساء لخلط السدر أو الحنة أو غيرهما من أدوات الزينة، وهي صغيرة الحجم، قريبة الشبه ب"البريه" إلا أنها أصغر حجما.

صور رقم(15) جامعة أقلام ومزهرية

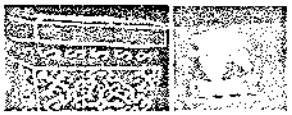

صورة رقم (16) "شمعة اشحم"

"**بريه**": إناء صغير، أو قالب صغير يستخدم لصناعة "المون"[1] بأنواعه.

صورة رقم (17) برية وتظهر بها مونيه طازجه

"**دايه**" : قدم سرير تقليدي (خبطه).

صورة رقم (18) دايات الخبطه

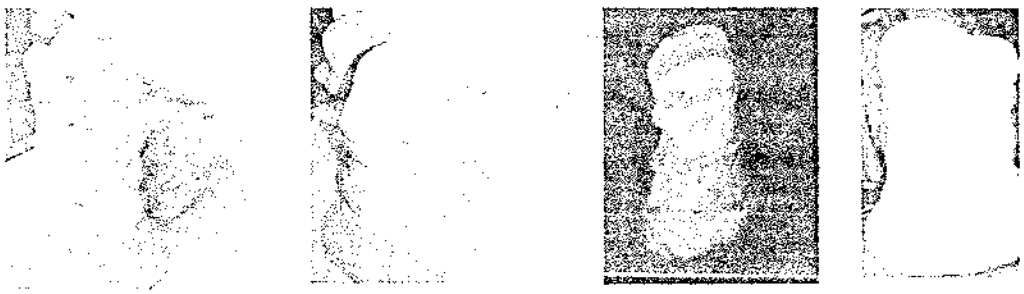

"**قوت مبني**": أداة لطبخ الكسكس، ويطلق عليه "رقاب".

"**صل مبني**": قدر يستعمل لغسل اليدين والوضوء في فصل الشتاء.

1 قطع من عجينة دقيق الحبوب تقلى على زيت محلي (القرت)، وتعتبر من خصوصيات الوجبات الولاتية.

"**بوص مبني**": قدر يستخدم للتبول في ليالي الشتاء الباردة دون الحاجة للخروج من الغرف، ولتصريف مياه الأمطار أحيانا، كما يستخدم في بناء المراحيض.

"**تن تن**": أداة لحفظ النشويات والحبوب.[1]

وقد أبدع فنانو الفخار في نهاية القرن الماضي في ابتكار نماذج بارزة من الأواني، بعد أن أنشئت جمعيات نسوية تشجع وتكون وتدرب على صناعة الفخار، وكانت أوانيها غنية للغاية من حيث التصاميم. كما تصنع "دور العظمات" التي منازل صغيرة للعب البنات وأيضا نساء وبنات، تلهو بها البنات، وقطعا صغيرة منها الخيل والبقر والحمير والإبل وصغارها، يلهو بها الأطفال.

صور رقم (19) دار عظمات (منازل للعب البنات مكتملة التجهيز)

صورة رقم (20) "درمانيه" و"عظمه"

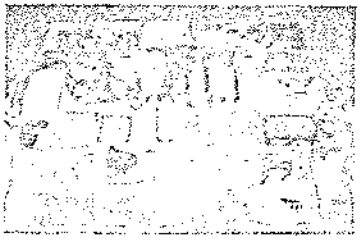

صورة رقم (21) قدح كرور من الفخار

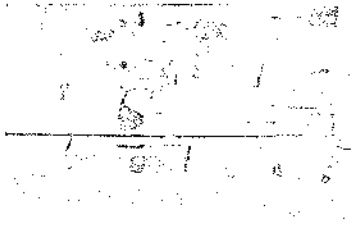

صورة رقم (22) سلاحف من الفخار

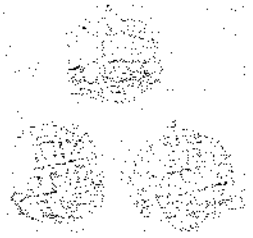

1 ولهذه الأدوات الأربعة الأخيرة نكتة طريفة ذات طابع أمني حيث أن أحد سكان المدينة كان في حقله خارج المدينة، إذ باغته فرسان متوجهين إلى ولاته، فسألوه عن مدى تأمينها وتحصيناتها وقدرات ساكنتها، فأجاب ساخرا أنها يشرف على حراستها إخوة أشداء هم "أبناء امبن" الأربعة : "قوت ولد مبن" و"صل و لد مبن و"بوص ولد مبن و"تنت ولد مبن"، فخافوا وعادوا أدراجهم!مع أنها لا تعدو أسماء لأواني فخارية كما رأينا.

وقد وضع التعاون الإسباني بين أيدي السكان طريقة للحرق أسرع وأكثر ملاءمة للقطع الفخارية. هذا الفرن يعمل لكن الفنيات يفضلن حرق قطعهن في منازلهن بدلا من التنقل نحو الفرن الموجود في مباني المشروع الذي أصبح اليوم مقر البلدية.

التسويق

من هنا تبدأ رحلة الفخار نحو من يرغبون فيه وليس له من الوسائط سوى أريج الإبداع الصادق وصبر الفنانين من ذوي الملكات على الإنجاز. ونتيجة للتطور الذي طرأ على الحياة في المدينة، فقد انتهت الحاجة إلى الأواني الفخارية أو جلها وأصبحت تستخدم للزينة فقط. فقد استعيض عنها بأوان مصنعة من المعدن أو البلاستيك أو الزجاج.

وهكذا بدأت صناعة الفخار تتقلص وتتكمش تدريجيا حتى كادت أن تصبح مهملة تماما. وهي آخذة بالانسحاب لتقبع في زاوية النسيان. وفي ولاته لا زال البعض يزاول هذه المهنة غير أنهم لم يحاولوا تطويرها وتكييفها لمتطلبات الحياة العصرية، بل أخذوا يهجرونها لأنها لم تعد قادرة على سد احتياجاتهم من جهة، ولقلة الطلب عليها من جهة أخرى.

وخوفا من انقراض هذه المهنة وتراجع صناعتها، تؤكد الفنانات أنهن سيحافظن على مهنتهن من مخاطر الانقراض والضياع وأنهن سيورثنها لبناتهن وحفيداتهن من أجل الحفاظ عليها في ظل الظروف الاقتصادية الصعبة التي يمر بها القطاع، وفي ظل التطور التكنولوجي في الصناعة والذي يهدد هذه المهنة اليدوية والبدائية بالانقراض.

لقد أصاب الركود صناعة الفخار في سبعينات وثمانينات القرن الماضي، ولكنها ازدهرت مرة أخرى في تسعينات القرن. فظهرت تغييرات ملفتة للنظر في أشكال الأواني وأحجامها.

نظرا لصعوبة مراحل صنع الفخار وطول مدة التحضير بدأ مشروع التعاون الإسباني في البحث عن سبل أخرى لتيسير الصنعة وتوسيع الإنتاج وتقليص حجم التكاليف، فأحل فرن الغاز محل "الوريه". كما تجاوزت الفنانات حدود التقليد في الصنعة، فأحدثن بعض التغييرات في أشكال القطع وتزييناتها. ولكن التنافس بين المنتجات في البيع ونجاحهن في البدء في عرض بضائعهن باعتبارها تحفا فنية، واقتران ذلك بجشع الزبناء وهبوط جودة البضائع، كل ذلك ما لبث أن قضى على تلك القيمة والازدهار، رغم أنه لم يكن بالإمكان في البدء تبيان الاختلاف بين القطع لتشابهها.

دور مهرجان المدن القديمة في لفت الانتباه إلى صناعة الفخار

لم تقتصر فعاليات مهرجان المدن القديمة الذي تنظمه وزارة الثقافة والشباب والرياضة على التسوق والفعاليات الترفيهية بأنواعها فحسب، بل امتدت لعرض عدد من الصناعات التراثية المختلفة التي كان لها أثر فعال في جذب كثير من الزوار من هواة التراث، حيث انتشرت في أركان مواقع الفعاليات عدد من الصناعات والحرف اليدوية التي يرجع تاريخها لمئات السنين، أهمها: صناعات الفخار الطيني بأنواعها، فقد كانت محل اهتمام روادها في المهرجان. فالفخار الطيني من الحرف التقليدية التي يهتم بها أبناء المنطقة منذ القدم وعمد عدد من الولايات لتكرار هذه الصناعات التقليدية وصناعتها وتصديرها، لتباع في مهرجانات المدن القديمة المتعاقبة، لما لها من قبول لدى رواد هذه المهرجانات لاقتنائها.

لا يمكن أن يغيب عن أعين زوار مهرجان المدن القديمة تلك الطاولات الطويلة العريضة، التي زينتها القطع الفخارية الموزعة عليها. إنها لشابات أردن امتهان تجارتها تعبيرا منهن أن حضارة الأجيال السالفة ما زالت قائمة، ولن تمحوها الأواني الزجاجية البراقة، فإن هي تطورت، فحتى القطع الفخارية بدورها تطورت وأضحت اليوم مزيجا من الأشكال والألوان. حدثتنا إحدى السيدات قائلة بأن هذه التجارة قبل أن تكون مكسب رزق، فهي موروث حضاري عن الأم التي ورثتها عن والدتها وهكذا دواليك. وقالت إن أمها لم تكن تبيعها فقط بل كانت تصنعها برفقة أختها، حيث كانتا تعملان في منزلهما، واستطاعتا تطوير صناعتهما، وكانت صديقتهما السيدة مسعوده منت ارب تقوم بعملية الحرق. وفي وقت قصير أصبح الفن أكثر دقة واحترافية، وهذا ما سمح بتطوير أشكاله، وحتى ألوانه، لتجلب الزبائن، وبالتالي كانت مصدر عيشهما.

صورة رقم (23) نموذج من عروض الصناعة التقليدية

من المنطقي أن كل من يرحل إلى الإقامة في العاصمة يتخلى بسهولة عن مزاولة حرفته في صناعة الفخار، فيكتفي فقط ببيعها إن استطاع ذلك، بحكم الضيق في المسكن وكذا مواجهة ظروف صعبة تحول دون ذلك، ورغم كل الظروف التي واجهت السيدة الخيت إلا أنها استطاعت نقل صناعتها معها. لقد أخبرتنا أنها تمضي جل وقتها في تلك المهنة التي جعلتها بئرا لكل أسرارها ومسرحا لكل مكبوتاتها، حيث أنها تعتبرها جزءا منها، فتفننت في صناعة القطع الفخارية بطرق تقليدية. وتقول إن مزاولة الصناعة الفخارية يجعلها تحس وكأنها لازالت تعايش الزمن الماضي. فبالرغم من مرور الزمن، إلا أنها بمجرد ممارستها لمهنتها تتذكر والدتها التي علمتها المبادئ عندما كانت في سن الطفولة، في ذلك الوقت كانت تصنع القطع لتلعب بها برفقة صديقاتها، ولكنها استطاعت تسجيل كل مراحل صناعتها في ذاكرتها، وهي الآن تجسدها، وتريد أن تكسب أكبر عدد من الزبائن من كل مكان، ليس من أجل كسب المال، ولكن من أجل ترسيخ هذا التقليد الحضاري، الذي يخاف عليه من الاندثار في ظل التطورات التكنولوجية الحاصلة وعزوف الشباب عن كل ما هو تقليدي.

وما ساهم بقسط معتبر في ترسيخ هذا الإرث الحضاري الكبير، هو الإقبال المنقطع النظير من قبل أهل ولاته على شراء القطع الفخارية، فهم يستخدمونها للزينة، تقول إحدى السيدات: "لا يمكنني وأنا قادمة من بعيد ألا أطلب من زوجي التوقف عند البائعات اللواتي يعرضن قطعا لافتة وجميلة، وعندما أقف أمامهن تجذبني فلا أستطيع أن أشتري منها شيئا، بحكم أنها أعجبتني جميعها، وكم هو صعب الاختيار من بينها، لدي العديد منها في منزلي، ولكنني كلما شاهدت المزيد منها تمنيت شراءها، أستطيع استخدامها للزينة". وسيدة أخرى تقول إنها تملك العديدة من هذه القطع، وتستعملها في ممرات منزلها للزينة، فألوانها متنوعة، مما جعلها تبدو أكثر جمالا لتضيف حلة أبهى للمنزل.

انتشار خارج الحدود

من هنا تبدأ رحلة الفخار نحو من يرغبون فيه وليس له من الوسائط سوى أريج الإبداع الصادق وصبر الفنانين من ذوي الملكات على الإنجاز. فقد ذاع صيت الفخار وازدادت شعبيته، فبدأ أهل المال يتهافتون لاقتناء المصنوعات الفخارية ونقلها خارج ولاته كهدايا لأصدقائهم وأقاربهم في الأماكن التي يزورونها أو يمرون بها داخل الوطن وخارجه. ومع أن هذه الطريقة بدأت مع مشروع

تنمية ولاته الممول من طرف التعاون الإسباني حيث أقدم حرفيا مغربيا يدعى رضا لتجديد هذه الصنعة وتوجيه الصانعات نحو الطريقة الجديدة. وهكذا كان السيدان هيلل ولد طيره وعبدو ولد د الله من أمهر المتعلمين، بل إن الأخير أمضى حوالي شهرا في التدريب في المغرب. ونظرا لأنهما ليسا أبناء حرفيين، ولأن المهنة في ولاته نسوية كليا، ما لبثا أن أهملا الصنعة بعد انتهاء المشروع.

عوائق صناعة الفخار في ولاته

يشعر البعض بأن هناك نيات مبيتة لإقبار هذا الفن وتحويله إلى سلعة للمزايدة والسمسرة والتسابق نحو الربح دون أي اعتبار للجودة. وهذا يتضرر منه الحرفي التقليدي والمبدع الأصيل بحكم محدودية إمكانياته المادية لتطوير أساليب اشتغاله، فيصبح بالتالي ضحية للمنافسة غير المتكافئة مع سماسرة لا علاقة لهم بالصنعة. ويصرح البعض بكون جهات خفية تسعى إلى إقصاء صناعة الفخار من الحسبان وتهميشها، وذلك على حساب الاهتمام بأنماط فنية أخرى. وأنه لولا بحث هؤلاء الصناع عن أرزاقهم في حلبات أخرى لتوقفوا عن الصنعة.

والحقيقة أن هذا الفن العريق يعرف منعطفا صعبا، ويجتاز مرحلة عويصة كادت تعصف به، لولا صمود بعض الحرفيين المهووسين بصنعتهم وإبداعهم، والذين ربطوا حياتهم وكينونتهم بتواجده. فهم يحرصون على استمراره كي يستمروا وإلا فليدفنوا أنفسهم أحياء.

ومع أن سوق الصناعات الفخارية لا يزال يستقطب عددا لا بأس به من المهتمين بالتراث والموروثات القديمة، إلا أن أصحاب المهنة يشكون من عدة صعوبات تتمثل في قلة المهرة لمهنة تعتمد أساسا على الخبرة والمهارة العالية.كما أن العائد المادي لصناعة الفخار لم يعد كافيا لمواصلة هذه المهنة، إذ تباع معظم المنتجات الفخارية بأسعار زهيد.

ويمكن أن تلخيص أهم العوائق في:

. الضعف الكبير في الإمكانات المادية وانعدام الموارد والمصادر،

. قلة الطلب على المنتجات بسبب منافسة الصناعات العصرية، وخاصة البلاستيكية والألمنيوم الأقل تكلفة والأطول عمرا، والأجمل والأخف وزنا.

. غياب الدعم والتشجيع من قبل الدولة والمؤسسات، ثم ارتفاع المصاريف،

. اختصار التحفيز على مجال السياحة،

. عدم تمييز البنوك من حيث الفوائد بين التاجر والمقاول والصانع التقليدي،

. غياب جمعيات تؤطر العمل وتوحد الصفوف وتشد عضدهم قصد الاستمرار في العطاء، وذلك بتوزيع المهام وجعل التلاحم عنصرا هاما في الحياة الحرفية والإبداعية.

. عدم توفر أسواق داخلية وخارجية محترمة قصد تصريف المنتج وذلك لتغطية النقص الحاصل في التسويق، مما ينعكس سلبا على المردودية.

وبناء على ذلك لن يتمكن من متابعة مزاولة هذه الحرفة سوى من توفروا على من يعرضون لهم منتجاتهم خارج ولاته. وقد انعكس هذا على مستوى الجودة بسبب اختفاء الحرفيين، أو تغييرهم للحرفة.

وبالرغم من المعوقات التي تعترض طريق صناعة الفخار، فقد استطاع بفضل حنكة رواده وتجربتهم الطويلة وباعهم الزاخر أن يؤسسوا وهجا متألقا وسط العتمة والأشواك، فنال بذلك مكانة كبيرة، واكتسح ساحات هامة من الاهتمام الشعبي والدولي حيث يأتي سنويا مئات الأشخاص في مهرجان المدن القديمة ليتأملوا عطاء إنسانيا فريدا يقاوم بشدة المتاريس ويتخطى الحدود. وقد أنشئ في ولاته متحف يحكي قرونا من تاريخ الفخار في ولاته. وقد أرسى دعائم هذه التجربة رجل إسباني يدعى خوسي كورال حيث جمع في هذا المتحف الكثير من المصنوعات الفخارية الصغيرة والكبيرة. وأخيراً، وجد الفخار عبر العصور أنه من الطبيعي تأسيس لعلاقة وثيقة وضيقة تعطي مقياس الأهمية للعمل الإبداعي لأية آنية طينية قد يشكلها، إنها علاقة سرية أشبه بالنمط الصوفي الباطني: علاقة الروح بالجسد – علاقة التربة بالأرض.